الدرس الخامس: كتاب "الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري" للآمدي قضية "الموازنة النقدية"

تأثر العرب بتيارات جديدة، فصار لكل تيار شعراؤه وأدباؤه، فمن تيار تقليدي ظل محافظا على عمود الشعر، كالبحتري. من الوقوف على الأطلال، ومشاهد الرحيل والغزل، وصولا إلى الغرض، إلى تيار خرج عن المألوف في القصيدة الشعرية، مثل هذا التيار أبو تمام. فألفت العديد من الكتب، التي أيدت كل شاعر أو عارضته منها كتاب "الموازنة بين بين شعر أبي تمام والبحتري" للآمدي.

1. نبذة عن الكاتب

هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي من مدينة آمد شمال العراق، عاش في القرن الرابع هجري، تعلم في البصرة. ثم ارتحل إلى بغداد المتوفي سنة 370ه. تتلمذ على ابن دريد، ونفطويه، والأخفش. واطلع على كتب ابن المعتز، وابن قتيبة، وابن طباطبا...وغيرها.

من مؤلفاته

أ. كتاب معاني الشعر البحتري
ب. الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام
ت. إصلاح ما في عيار الشعر لابن طباطبا
ث. تبيين غلط قدامة بن جعفر

2. نبذة عن الكتاب

ألف الآمدي كتابه الذي يعد وثبة في تاريخ النقد العربي، وأول كتاب في التطبيق، ليطرح قضية أثارت الجدل في القرن الرابع هجري، وهي قضية الموازنة بين شاعرين أبي تمام والبحتري، المعرفين بالطائيين نسبة إلى قبيلة طيء. ومن أجود شعرا هل أبو تمام أم البحتري، ومن أكثرهم سرقة، ومن أكثر خطأ في شعره، فبين من عد شعر البحتري أفضل لأنه سار على نهج القدماء وما فارق عمود الشعر، شاعر مطبوع. وبين أبي تمام شديد التكلف صاحب صنعة، وشعره لا يشبه شعر الأوائل. فأراد أن يضع كتابا قائما على اعتماد الحق وتجنب الهوى في الحكم.

حاول الآمدي أن يكون منصفا في موازنته إذ قال في مقدمته:"فأما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ولكنني أوازن بين قصيدتين من شعرهما إذ اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية وبين معنى والمعنى".

ارتفع الآمدي عن سذاجة النقد القائم على المفاضلة بوحي من الطبيعة وحدها دون تعليل واضح، فكان موازنة مدروسة مؤيدة بالتفصيلات التي تلم بالمعاني والألفاظ والموضوعات الشعرية بفروعها المختلفة، فجاء الكتاب متسلسلا في قضاياه، لحسن تنظيمه، يتكون من خمسة أقسام:

القسم الأول: أورد فيه آراء النقاد في شعر أبي تمام والبحتري، واستقصى رأي المتعصبين لهذا ولذاك.

القسم الثاني: ذكر فيه أخطاء أبي تمام في اللفظ والأسلوب والمعنى.

القسم الثالث: وذكر فيه استعارات أبي تمام المستهجنة، وما جاء في شعره من طباق مستكره ومن سوء نظم، وتعقيد تركيب، ووحشي الألفاظ، وما وقع فيه من كثرة زحافات.

القسم الرابع: وفيه حلل عيوب شعر البحتري.

القسم الخامس: وفيه وازن بين الشاعرين موازنات جادة في المعاني التي اتفق موضوعها في شعرهما.

3. القضايا التي تناولها الكتاب

إن الناظر في كتاب الموازنة للآمدي يجد كثيرا من القضايا النقدية منها:

1. من أبرز القضايا التي تطرق إليها الآمدي، آراء النقاد في شعر أبي تمام والبحتري، فرأى أنصار أبي تمام أن هذا الأخير سابق على البحتري فهو المبتكر والمبتدع للمعاني والبحتري هو اللاحق الذي أخذ عنه واحتذى حذوه، بل راحوا يستشهدون بقول البحتري الذي قال:"جيده خير من جيدي ورديئي أحسن من ورديئه". فرد أنصار البحتري أن هذا الأخير لم يتتلمذ على أبي تمام ولا على تلاميذه، بل تعرف البحتري على أبي تمام بعد نضج قريحته. وحتى وإن تأثر به فإنه أكثر شاعرية منه.
2. قضية السرقات التي ألصقت بالعديد من الشعراء، ولم يسلم منها أحد، فرد الآمدي على النقاد السابقين، الذين يعدون كل اشتراك في المعنى أو لفظ بين شاعرين من باب السرقة، فرأى الآمدي أن المعاني التي يشترك فيها الناس لا تعد سرقة، وإنما السرقة تكون في البديع ليس للناس فيه اشتراك، ومن أمثلة ذلك أن ابن أبي طاهر قال أن أبا قول أبي تمام:

ألم تمت يا شقيق الجود من زمن فقال لي: لم يمت من لم يمت كرمه

أنه مأخوذ من قول العتابي:

ردت صنائعه إليه حياته فكأنه من نشرها منشور

في حين رأى الآمدي أن هذا المعنى شائع بين الناس، فمن يمت من أهل الخير والفضل، فكأنه لم يمت فأنه أعماله تخلده.

أما ما يعد سرقة في نظره كأن يأخذ المعنى كما هو بلفظه كما في قول أبي تمام:

أبَنّ مع السباع الماء حتى لخالته السباع من السباع

أخذ من قول الشاعر:

ترد السباع معي فأُلْ في كالمدل من السباع

3. قضية الموازنة

أ. تعريف الموازنة

1. لغة

الموازنة: وزن الوزن ثقل شيء بشيء مثله كأوزان الدراهم، ويقال للآلة التي يوزن بها الأشياء ميزان ووازن بين الشيئين موازنة ساوى وعادل.

2. اصطلاحا

الموازنة في عرف النقاد هي:"المفاضلة بين شاعرين أو كاتبين، أو عملين أدبيين أو أكثر للوصول إلى حكم نقدي.

لم تكن فكرة الموازنة جديدة عند الآمدي، بل تمتد جذورها إلى أم جندب، والنابغة الذبياني الذي كان يقف في سوق عكاظ، للمفاضلة بين الشعراء، والإمام علي رضي الله عنه، وإلى فكرة الطبقات، ليأتي الآمدي ويستفيد من الذين سبقوه، ليوازن بين شعر الطائيين.

بين الكاتب طريقة موازنته فقد بدأ بذكر مساوئهما ليختم بذكر محاسنهما، بقوله:"وأنا أبتدئ بذكر مساوئ هذين الشاعرين لأختم محاسنهما، واذكر طرفا من سرقات أبي تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره، ومساوئ البحتري في أخذ ما أخذه من أبي تمام وغير ذلك من غلطه في بعض معانيه.

كان الآمدي يرجع في أحكامه إلى ما تعارفت عليه العرب وأقرته، في الحكم على إحسان الشاعر أو إساءته، لا يقف هذا الأمر عند حدود اللفظ وما يجوز في الاستعمال وما لا يجوز بل يتجاوزه إلى دقائق المعاني والصور والأخيلة.

3. معايير الموازنة

أ. الإصابة في الوصف

اعتمد الآمدي على الصور الفنية التي أبدعها الشعراء الأوائل.

ب. معايير بيانية

والتي تتصل بالمجاز، والاستعارات، والتشبيهات، وجعل معيار الجودة فيهما القرب، وعدم الإغراب وصدق الدلالة.

ت. معيار البديع

رأى الآمدي أن أبا تمام أكثر من توظيف البديع في شعره، فكثرت أخطاءه، مما جعله من أنصار الصنعة.

4. الكتاب في ميزان النقد

1. رغم أن الآمدي صرح بأنه لا يفضل شاعرا على آخر، إلا أنه كان يؤثر طريقة البحتري ويميل إليها، من أجل ذلك جعلها "عمود الشعر" ونسبها إلى الأوائل وصرح أنه من هذا الفريق، يقول:"والمطبوعون وأهل البلاغة لا يكون الفضل عندهم من جهة استقصاء المعاني والإغراق في الوصف، وإنما يكون الفضل عندهم في الإلمام بالمعاني وأخذ العفو منها كما كانت الأوائل تفعل مع جودة السبك وقرب المأتى، والقول في هذا قولهم وإليه أذهب".